الفصل السادس

العمـــــل

١- الإصلاح.

٢- الفساد.

٣- الذكر والأنثى.

٤- القوة.

٥- الضعف.

٦- الكدح.

٧- القسط.

٨- الميزان.

١- الإصلاح

تتعدد المواقف بالنسبة لعلاقة الدين بالدولة أو الدين بالمجتمع أو الدين بالحياة. وهى ثلاثة: الموقف السلفى التقليدى الذى كان سائدا فى الدولة العثمانية أثناء فترة ضعف الخلافة. ويمثله أبو الهدى الصيادى شيخ الإسلام فى حلب. وكان يدعو إلى استمرار الخلافة بحسنها وقبحها كمسألة مبدأ وعقيدة، رمزا لوحدة الأمة، ودفاعا عنها ضد الطامعين فيها لتقطيع أوصالها، والتهامها جزءا جزءا من الدول الكبرى فى ذلك الوقت. وهو ما حدث بالفعل بعد خسارتها فى الحرب العالمية الأولى. والثانى الموقف العلمانى الذى كان يمثله حزب "الاتحاد والترقى" أو "تركيا الفتاة". وكان يمثل القومية الطورانية، وإلغاء الخلافة، والعودة إلى الحدود الطبيعية التركية، وتبنى النموذج الغربى بحذافيره مثل الفصل بين الدين والدولة، وتغيير الحروف العربية إلى حروف لاتينية، وتقليد الغربيين فى أساليب حياتهم، لباسهم وطعامهم وعمارتهم وفنونهم. وهو الموقف الذى قاده مصطفى كمال الذى نجح فى طرد الجيش اليونانى الذى كان على أبواب أنقره فى قلب هضبة الأناضول. والثالث الموقف الإصلاحى الذى قاده جمال الدين الأفغانى "لوثر الشرق" وتلاميذه. كان يبغى تحديث الخلافة دون القضاء عليها، والقضاء على الفساد فيها دون هدمها، والدعوة إلى اللامركزية للتخفيف من بطش السلطنة، ورعاية مصالح الأقاليم. وشاركه فى ذلك شبلى شميل "حكيم الشرق" من العلمانيين العلميين، للدعوة إلى تأسيس الدستور والبرلمان للمراجعة على قرارات السلطان، وتقييد سلطته المطلقة. وهو التيار الذى لم ينجح فى عصره بالرغم من محاولات التحديث

فى "التنظيمات". وربما يحن حزب العدالة والتنمية الآن إلى الموقف الإصلاحى من جديد بعد تأزم الموقف العلمانى وظهور حدوده. وهو الموقف الذى يعود من جديد فى الثورة الإسلامية فى إيران عند الرئيس خاتمى والإصلاحيين، وفى المغرب فى حزب العدالة والتنمية وسط الاستقطاب الشديد بين السلفيين والعلمانيين فى مصر وليبيا وتونس والجزائر وسوريا والسودان.

ويتضمن الإصلاح التغير التدريجى للمجتمعات الإسلامية ابتداء من القضاء على الفساد. فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح بالوسائل السلمية، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والنصيحة، والحسبة، وخطب المساجد، والدروس الدينية، واللجوء إلى القضاء إذا لزم الأمر. وإن لم تنجح هذه الوسائل واستمر الفساد والظلم من الأئمة فالخروج على الحاكم الظالم واجب شرعى. ولا يكون الخروج بالضرورة بالسلاح بل يمكن بالعصيان المدنى، والمظاهرات الشعبية، وضغط الرأى العام، وتجنيد الناس.

وهو ما يتفق مع معانى لفظ "الإصلاح" فى القرآن الكريم. فهو لفظ شائع يتكرر. ذكر حوالى مائة وثمانين مرة، أسماءً أكثر، حوالى مائة وخمسين مرة، وأفعالا أقل، ثلاثين مرة. فلا إصلاح بلا صالح وصالحين وصالحات ومصلح ومصلحين وإصلاح. يعنى الإصلاح بين الناس والصلح بين الأزواج، والصلاح فى الأعمال.

النبوة إصلاح فى الأرض. بل إن صالح اسم نبى. والعمل الصالح دليل على نبوته، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾. فلا يوجد صاحب دعوة للإفساد. الإصلاح اتجاه نحو الكمال، وتحرك نحو المثال. ومهمة الوحى الإصلاح فى الأرض. وهو دور الإنسان. فإصلاح الأرض أمر طبيعى ضد الإفساد فيها، ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. وفرق بين الإصلاح والإفساد، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ

﴿الْمُصْلِحِ﴾. دور الإنسان إعمار الأرض وتحويلها من أرض صفراء إلى أرض خضراء، ومن أرض قاحلة إلى أرض عامرة. الإصلاح الذاتى أولا قبل إصلاح الغير ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾. والإصلاح للأفراد، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، وبين الأزواج، ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾. والصلح بينهما يلغى الطلاق، ويرد الزوجة إلى زوجها، ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا﴾، ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾. الإصلاح جمع وليس فرقا، توحيد وليس تفريقا، تآلف وليس نفورا. لذلك لا يجوز الخصام بين الناس. وخصام الأخ لأخيه لا يتجاوز ثلاثة أيام. فما بال خصام الأحزاب والشعوب فيما بينها عقودا من الزمان أو أكثر خاصة لو كانوا من دول الجوار مثل المغرب والجزائر، العراق والكويت، اليمن والسعودية، مصر والسودان، الصومال والحبشة...الخ.

ومنها الإصلاح بين الناس، ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، داخل الأسرة وخارجها، ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾. فالإصلاح مظهر من مظاهر البر والتقوى، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾. وهو إصلاح بين المسلمين المتقاتلين، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. هو إصلاح بين الإخوة، وجميع المؤمنين إخوة، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. الصلح خير وسلام وأمن وطمأنينة، ودليل على كرم النفس، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾. رعاية اليتامى إصلاح لهم، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾. فالإصلاح بين البشر قبل أن يكون فى الأرض. فالبشر هم سادة الأرض.

والإصلاح بعد التوبة من الظلم، ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾. الإصلاح تكفير عن الذنب، وتحول من الظلم إلى العدل، ومن التكبر إلى

التواضع. الإصلاح عود إلى الطريق المستقيم، طريق الطبيعة المتجهة نحو الكمال، وتصحيح للانحراف الذى يدمر الطبيعة ويرجع مسارها إلى الوراء.

وجزاء الصلاح جنات عدن. فالعمل الصالح هو الطريق إلى الآخرة، الصالحون والصالحات على حد سواء. بل إن الصالحات أكثر استعمالا من الصالحين حوالى الضعف. وكلاهما أصحاب وصاحبات الأعمال الصالحة. لذلك قرن الإيمان بالعمل الصالح بصرف النظر عن الإيمان بماذا والصلاح لمن؟ وقد جعل المعتزلة من مبادئهم رعاية الصلاح والأصلح كأحد الواجبات العقلية من الله وعلى الإنسان. والمصالح العامة المصدر الأول للتشريع والقادر على إحكام اشتباه النصوص.

الإصلاح هو سبب بقاء الشعوب فى التاريخ والإفساد سبب انهيارها، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾. فالتاريخ مسار نحو التقدم. والإصلاح فاعله الرئيسى، والمحافظ عليه. الإصلاح هو السبيل إلى نهضة الأمم، والأفساد سبب تأخرها. فالصالحون لهم وراثة الأرض، ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. والمفسدون يندثرون ولا يبقون.

٢- الفساد

الفساد يقابل الإصلاح. غياب الإصلاح فساد، وغياب الفساد إصلاح. وهما مثل التقدم والتأخر. التقدم إصلاح، والتأخر فساد. والمقابل اللغوى للإصلاح هو الإفساد، الفعل الرباعى. ومع ذلك فالغالب فى الإفساد هو الفعل الثلاثى "فسد" أكثر من الفعل الرباعى "أفسد". فى حين انه فى الإصلاح الأغلب هو الفعل الرباعى "أصلح" أكثر من الفعل الثلاثى "صلح".

وإذا كانت النبوة إصلاحا فإن التكذيب بها إفساد. فمقياس التصديق بالوحى أو التكذيب به مقياس الإصلاح أو الإفساد فى الأرض. فالوحى ليس فقط معرفة بل هو سلوك. ليس فقط نظرا بل هو عمل. ليس فقط إيمانا أو اعتقادا بل هو تغيير وتطوير إلى الأفضل.

وقد ورد لفظ "فساد" ومشتقاته حوالى خمسين مرة أقل من لفظ "صلح"، الثلث تقريبا مما يدل على أهمية الإصلاح وأنه من طبائع الأمور أكثر من الإفساد. محاربة الفساد مجرد مقدمة من أجل تحقيق الإصلاح فالسلب مقدم على الإيجاب. والنفى سابق للإثبات.

وقد ورد اللفظ اسما (حوالى اثنين وثلاثين مرة). ويعنى فى معظمها الفساد فى الأرض، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾. والفساد لا يأتى بعد الإصلاح لأنه ضد طبائع الأشياء بل الإصلاح هو الذى يأتى بعد الفساد، ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾. وإفساد الأرض بإفساد الحرث والنسل أى

الثروتين الزراعية والحيوانية، ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾. الإفساد هو الخراب والقحط والمجاعة والموت كما يحدث فى كثير من بلاد المسلمين فى السودان والصومال وتشاد ومالى بالعجز عن السيطرة على الطبيعة وبالنزاعات الداخلية وكما يحدث فى فلسطين بتجريف الأراضى ونزع الأشجار. الفساد هو القضاء على مقومات الحياة العضوية فى النبات والحيوان.

والفساد فى البر والبحر، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾. فالبحر مثل البر، تدفن فيه النفايات، ويصيبه التلوث. ويحدث فى القرية أى فى المجتمع، ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ وهو فساد النظام الاجتماعى والسياسى. ويظهر الفساد فى البلاد أى فى الأوطان، ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾. وينخر فى الدول ويقضى عليها.

والعلو والاستكبار فى الأرض مظهر من مظاهر الفساد، ﴿تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾. وهو الفساد السياسى بمعنى القهر والتسلط والطغيان. ويقع الفساد فى السماء والأرض بإتباع الأهواء، ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾. فالفساد يصل من الأرض إلى السماء إذا تابع الإنسان أهواءه وترك الحق. فالسماء رمز القيم والمبادئ، كما أن الأرض رمز الوقائع والأوضاع. هو الفساد الشامل فى كل طبقات المجتمع، الخاصة والعامة، النخبة والجماهير، فساد الأغنياء لمزيد من الإثراء. وفساد الفقراء من أجل القدرة على التعايش وحفظ البقاء. ومقاومة الفساد فى الأرض تطلب "الدفع" أى الصراع البشرى والجهد والكد والسعى والمقاومة، ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾. الفساد لا يمكن إتباعه والرضوخ له بل مقاومته والتصدى له وكشفه وفضحه أمام الرأى العام. ﴿وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

والتولى عن النبوة فساد فى الأرض. فالوحى هو طريق الإصلاح، ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾. النبوة إصلاح فى الأرض وتوجيه للطبيعة نحو الكمال، وتقدم التاريخ. الفساد عصيان، ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. وإنكار الحق وتكذيب النبوة. وهو فتنة فى الأرض، ﴿إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. كما أن الفتنة فساد فى الأرض لأن الصلاح لا يأتى إلا بالمصالحة والتعاون. وإذا أفسد الإنسان فى الأرض أحيانا فلكى يتعلم الإصلاح ويحققه دائما.

وإبخاس الناس أشياءهم مظهر من مظاهر الفساد، ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. وعدم تقدير جهد العاملين حتى تصاب أنفسهم بالإحباط وذلك مثل إعطاء العامل أقل مما يستحق، وإعطاء الفلاح أقل من جهده. والإفساد فى الأرض قطع ما أمر الله به أن يوصل، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، فى حين أن الإصلاح وصل واتصال، وربط ورباط. الفساد هو ضرب الناس بعضهم ببعض. وإيقاع الشقاق بين الأحزاب والقوى السياسية حتى يقوى الحاكم إذا ما تفرق الخصوم.

وإيقاف النسل، ذبح الذكور واستحياء الإناث، فساد فى الأرض، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. فالحياة تكاثر ونماء وخصوبة. والإفساد فى بقعة من الأرض هو إفساد فى الأرض جميعا كما أن قتل نفس واحدة هو قتل للناس جميعا. الفساد يستشرى فى الأرض إذا بدأ ولا يتوقف. بل هو عدوى سريعة الانتشار. وتنهار الأمم بالإفساد فى الأرض وتنهض بالإصلاح فيها، ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾. الفساد هدم والإصلاح بناء. الفساد هزيمة للإرادة، والإصلاح نصرلها. والنصر فى النهاية للإصلاح والهزيمة للإفساد، ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾، والوحى هو كلمة الله وتحقيقها فى الأرض بالجهد الإنسانى. وإذا كانت صفات الله وأسمائه نموذجا للسلوك الإنسانى والله لا يحب الفساد فإن الإنسان أيضا لا يحب الفساد.

والتوحيد لمنع الفساد فى الأرض، ﴿لَوْكَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. فوحدانية الله تنعكس فى وحدانية الطبيعة والمجتمع والإنسانية. يحكمها مبدأ واحد، يتساوى أمامه الجميع دون ازدواجية المعايير كما يحدث فى القرارات الدولية ومواقف الدول الكبرى. والفساد فى الأرض من كسب الناس وليس من فعل الله، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾. ولا يمكن الاعتذار بالقدر المسبق أو بالعلم الإلهى لارتكاب الفساد. فالإنسان مسئول فى العالم عن الإصلاح والإفساد على حد سواء. وأخيرا جزاء الفساد فى الأرض العذاب فى الآخرة، ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾. فالفساد فى الأرض ليس مجرد أثر فى الدنيا بل له تبعاته فى الآخرة مما يخيف الناس من الفساد ويبعدهم عنه.

اليسار الإسلامى رؤية فى تغيير الواقع أكثر منه تصورات نظرية. ومن وسائل تغيير الواقع التحول من الإفساد إلى الإصلاح. وبالتالى يلتقى مع كل الاتجاهات الاجتماعية التى تشارك فى نفس الهدف. وهذا هو معنى شمول الإسلام وعالميته أى قدرته على احتواء باقى العقائد والقيم فى رؤية واحدة لتحقيق هدف واحد. وهو فى النهاية إحدى تجليات التوحيد.

٣- الذكر والأنثى

كثرت الشبهات حول وضع المرأة في الإسلام، وأنها ليست مساوية للرجل سواء في قانون الأحوال الشخصية مثل الطلاق بيد الرجل، وتعدد الزوجات حق للرجل وإن كان مشروطا بالعدل المستحيل، والميراث، والقوامة. وقامت حركات حقوق المرأة المتأثرة بالتراث الغربي لتنادي بمساواة المرأة بالرجل في الإسلام، وطبقا للمواثيق الدولية. كما قامت حركات الإصلاح في مصر وتونس بإجراء بعض الإصلاحات على قوانين الأحوال الشخصية مثل الطلاق أمام القاضي وتعدد الزوجات بشرط موافقة الزوجة الأولى وإلا كان لها الحق في طلب الطلاق.

فما هي صورة الذكر والأنثى في القرآن الكريم؟ ذُكر في القرآن ثمان عشر مرة، نصفها للمساواة مع الأنثى ونصفها الأخر لعدم المساواة. المساواة في الخلق ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ للتكامل بينهما عضويا ونفسيا حتى تستأنف الحياة من خلال الذرية ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾، كل منهما مكمل للأخر ولا تستقيم الحياة بطرف دون أخر. والتفاوت بينهما في العمل والأداء ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ المساواة في الخلق والاختلاف في السعي. والاختلاف في السعي جزاؤه العمل الصالح طبقا لقانون واحد يطبق على الاثنين وهو قانون الاستحقاق ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ يتساويا في الإيمان والعمل ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ يحيا كلاهما في الدنيا حياة طيبة وفي الآخرة لهما الجنة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾. أما الاختلاف بينهما فمن أجل التعدد والوحدة، التفرق والتعارف ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾. أما عدم المساواة فإنها ترد طبقا للعقلية العربية البدوية في تفضيل الذكر على الأنثى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾، وتصور الله أنثى وليس ذكرا ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾. كما يرد فى إطار الميراث، وأنها الأنثى لها نصف ما للذكر فة مجتمع له لم يكن للأنثى أى حق بل ليس لها أى حق فى الحياة وفى الوجود ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ بالرغم من أن بعض العالمين بقانون الميراث وبالمعادلات الرياضية يقولون أنه فى بعض الحالات يكون للأنثى نصيب أعلى من الذكر. ولما كانت الوحدة هى الأسرة وليس الفرد يكون لها نصيب ونصف، ذكرا وأنثى.

أما لفظ الأنثى فقد ذكر ثلاثين مرة، أكثر من الذكر. نصفها مفردا "أنثى" وربعها مثنى "أنثيين" والربع الأخير جمعا "إناث". والمعنى الغالب على الاستعمال المفرد هو المساواة في الجزاء طبقا لقانون الاستحقاق ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾. وينال كل منهما الحياة على السواء ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾. وكلاهما له نفس الجزاء ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ وهناك المساواة فى الخلق وفى الطبيعة ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ وخلق كلاهما من مَنِى واحد ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾. والله يعلم ما فى الأرحام ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾. إن الله هو الذى يصور فى الأرحام الذكور والإناث ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وبزواج الإناث والذكور ينشأ الخلق العظيم ﴿أَوْ

﴿يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾. أما عدم المساواة فى الميراث ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ فى مجتمع لم يكن للمرأة فيه حق للميراث. والأغلب أن يأتى ذكر عدم المساواة تهكما على العقلية البدوية التى تجعل للذكر قيمة أعلى من الأنثى منذ الميلاد ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾. وهى العادة التى جعلت وجه العربى يسود إذا بُشر بأن المولود أنثى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. وطبقا لهذه العادة لا يمكن تصور الله أنثى ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾. ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾. ويتهكم القرآن على من أعطى لنفسه الذكور ووهب الله إناثا من الملائكة ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ كما يتهكم على الذين يجعلون الملائكة إناثا من خلق الله والملائكة وليس لهم جنس ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ والملائكة عباد الرحمن وليسوا إناثا ولا ذكورا ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ وإذا تغيرت العقلية البدوية تغيرت التصورات. وإذا كانت مازالت مستمرة لدى الطبقات الشعبية فإنها بدأت فى التغير لدى النخبة المثقفة التى اختارت المساواة. ولقد فضل الله مريم على نساء العالمين. وبرأ عائشة من حديث الإفك. وكان لخديجة وعائشة وفاطمة فى حياة الرسول فضل كبير.

٤- القـــوة

يدور سؤال رئيسى بيننا، نحن العرب، عن أسباب ضعفنا وكيف يمكن التحول من ضعف إلى قوة. فالقوة مطلب رئيسى فى عالم لا يعترف إلا بالقوى، وأمام عدو لا يعتمد إلا على القوة دون الشرعية. حدوده ما يستطيع جيش الدفاع الإسرائيلى الوصول إليه.

وقد ذكر لفظ "قوة" فى القرآن اثنين وأربعين مرة أى أنه موضوع مهم فى أربعة محاور. الأول قوة الإنسان والجماعة حوالى عشرين مرة. كلها تدور حول جهاد الأعداء، والاستعداد لهم، وعدم التراخى فى التسليح. فإذا كان لدى العدو السلاح النووى فعلى المسلمين أيضا امتلاكه، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. فالعدو صاحب قوة، ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ﴾. وفى مقابله يمتلك المسلمون كل أسباب القوة التى تفوق قوة العدو، ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾. وهذه القوة ليست ثابتة، تزيد وتنقص. فلا العدو يظل قويا إلى الأبد، ولا المسلمين يظلون ضعفاء إلى الأبد. فطالما هزمت أقوام كانوا أشد قوة من المسلمين، ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً﴾. فكل قوى هناك من هو أقوى منه، ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ﴾. وطالما هلكت شعوب ظنت أن قوتها دائمة، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾. فالتعلم من التاريخ واجب، من الصليبيين والمغول والتتار والاستعمار الغربى الحديث، ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. وكلما ازدادت

القوة لقوم كانت نذيرا عليهم بالهلاك، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾. وكلما ازدادت القوة زاد الغرور كما حدث فى إسرائيل بعد هزيمة العرب فى يونيو- حزيران ١٩٦٧، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾. وطالما هلك من كان أشد منهم قوة فى الأرض، الرومان قديما، والنازية حديثا، ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾. القوة تزيد وتنقص. تشتد وتضعف. فضعف المسلمين ليس إلى الأبد بل يزداد قوة من السماء وعلى الأرض، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾. فالضعف مؤقت والقوة من الجماعة ومن تدبر النفس، ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. والقوة من الجماعة بناء على الحق والعدل والخير، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾. الضعيف ليس دائما بل يتحول إلى قوة كما حدث من هزيمة ١٩٦٧ إلى نصر أكتوبر- تشرين ١٩٧٣، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾. والقوى أيضا لا يظل قويا. فالقوة دون الحق والعدل والخير تدمر نفسها بنفسها، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾. فهو قانون تاريخى. الضعيف يصبح قويا، والقوى يصبح ضعيفا، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾. والدولة الفتية تهزم. وهذا القانون تذكرة ومتاعا للمجاهدين الذين يحولون ضعفهم إلى قوة، ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾.

والمحور الثانى هو الله رمز الحق والعدل والخير أى المبادئ العامة الثابتة فى حياة البشر بالرغم من تحولهم من القوة إلى الضعف أو من الضعف إلى القوة. فمهما انتصر العدو وكانوا ظالمين فإن القوة الدائمة لله وحده، ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. ويدرك الظالم حين يأتى العقاب أن القوة لله، ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. فالله الذى خلق العدو هو أشد منه قوة، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. الله هو القوى

المتين، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. وهو الناصر، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾. وهو العزيز، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾. وهو الشديد العقاب، ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

والمحور الثالث قوة الوحى الذى به قوة الرسول أى قوة التمسك بالفكر والهوية، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾. فالوحى ليس فقط معرفة نظرية بل هو قوة عملية وحركة فى التاريخ، ﴿إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾. فالرسول هو القوى الأمين على الوحى وتطبيقه فى المجتمع ومساره فى التاريخ، ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾. والرسول قبل الوحى وبعده فى قوته وأمانته، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾.

والمسلمون أصحاب أمانة، الوحى فى آخر مرحلة، ولكن تنقصهم القوة وإلا تخلوا عن الأمانة. والعدو صاحب القوة وتخلى عن الأمانة. فالتحدى الآن قائم بين المسلمين وأعدائهم، بين الأمانة دون قوة، والقوة دون أمانة. والقدس هى موطن هذا التحدى عند المسلمين أمانة بلا قوة، وعند إسرائيل قوة بلا أمانة. وجميع أراضى المسلمين وشعوبهم وثرواتهم ومصالحهم أمانة تنقصها القوة فى فلسطين والعراق وأفغانستان والسودان والصومال. ليست القوة فيما بينهم، ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾. ولكن القوة فى مواجهة أعدائهم حتى يرهبونهم ويمنعونهم من العدوان.

٥ـ الضعف

وعادة ما يقرن الضعف بالقوة، والقوة بالضعف. فإذا كانت القوة ليست ثابتة بل هى فى أيدى الناس تذهب وتأتى، تضعف وتشتد، فكذلك الضعف. فقد ورد اللفظ فى القرآن الكريم واحدا وثلاثين مرة. نصفها تشجيعا للمستضعفين ولوما عليهم أنهم بقوا على حالتهم دون تغييرها إلى قوة. فلا ضعف مع الحق، ولا قوة مع الباطل. وتدور معانى اللفظ حول ثلاثة محاور.

الأول الاستضعاف والمستضعفين أى الإحساس وهما بالضعف وقبوله وعدم البحث عن وسائل القوة والاستقواء. هو قبول الضيم والظلم والقهر والعبودية من المستقوين. فالاستضعاف سنة الخلق. إذا قويت طائفة استضعفت الطوائف الأخرى كما حدث فى الغزو والاستعمار، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾. فالاستضعاف والاستقواء قانون طبيعى بين الشعوب التى تعتمد على القوة دون العدل. وحجة المستضعفين هى قوة المستكبرين. وهى حجة ضعيفة. ترمى بالمسئولية فى ملعب غيرها. فالعيب فى الذات وليس فى الآخر، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾. فالإيمان فعل ذاتى، لا يتعلق بقوة الآخر أو ضعفه. وهى حجة يعلم المستكبرون ضعفها ويردون عليها، ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ﴾. وحجة التقليد لا تجوز للضعفاء. فالتقليد تبعية، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾. ويحتج المستضعفون بأنه مكر الزمن ومأساة التاريخ وسوء الحظ إلقاء للتبعة على القدر وليس على النفس، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

بل إن الأنبياء أنفسهم فى لحظة ضعف يشعرون بأنهم ضعفاء أمام أقوامهم الأقوياء الذين لا يصدقون بهم، ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾. فيستغرب الأعداء كيف يشعر الرسول بقوة وهم يرونه فيهم ضعيفا، ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾. فدليل النبوة حسن الفهم والقدرة على الفعل أى القدرة النظرية والعملية. ويسأل الأقوياء الضعفاء إذا كانوا على ثقة من أن النبى قد أرسل من ربه ليعرفوا مدى إمكانية قوتهم فى المستقبل، ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾. والمستضعفون اليوم هم الأقوياء غدا. ولم يسمهم القرآن الضعفاء بل المستضعفين لأن الضعف ليس جوهريا فيهم بل طارئا عليهم، ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾. وقد كان شعار الثورة الإسلامية فى إيران وشعار "اليسار الإسلامى". فالمستضعفون اليوم هم وارثو الأرض ومن عليها غدا، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾. فمصير المستضعفين القوة. إذ لا يبقى الاستضعاف على حال دائم، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾. والقتال فى سبيلهم واجب، ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾. الاستضعاف ليس حجة للاستكانة والخنوع والاستسلام، ﴿فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾. فالمستضعفون لهم حقوق فى الاستقواء، ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾. ولهم حجتهم فى عدم الاستطاعة الهجرة، ﴿إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾.

والمحور الثانى هو الضعف كجزء من النسيج البشرى، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾. كواقع ولكن يمكن تخفيفه وتحمله، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾. لذلك لا يجوز فى الشريعة تكليف ما لا

يطاق. هناك صلاة القاعد والمسافر والمريض وهناك صيام المسافر والمريض، ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾. والحق أقوى من الباطل، والإنسان أقوى من الشيطان، ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾. وفى حالة الضعف العقلى أو البدنى يكون للإنسان ولى يستعين به، ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾. وليس على الضعفاء حرج، ولا على المرضى، ولا على الذين يريدون الجهاد ولكن لا يجدون ما يجهزون به أنفسهم، ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾. وإذا أراد الإنسان أن يخلق ذبابا أو أن يسلبه الذباب شيئا ما استطاع، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

والمحور الثالث هى المسئولية الشخصية عن الذرية أى عن التاريخ، ألا تترك الأجيال القادمة ضعافا، ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾. فالذرية هنا ليس فقط الأبناء والأحفاد بل القوم والشعب. فالكل من ذرية آدم وإبراهيم. يعمل الإنسان على تقوية نفسه عند الكبر وعدم ترك ذرية ضعافا حتى تظل الجماعة قوية، ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾. والحياة امتحان واختبار. وليس النصر بالضرورة مع القوة، وليست الهزيمة دائما للضعفاء. قد تكون القوة كما وليست كيفا. ويثبت التاريخ أن الكم لا ينتصر على الكيف، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾. فقد ينتصر العدد القليل على العدد الكثير كما حدث فى بدر، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾. والضعف المؤقت فى حاجة إلى صبر وإعداد، ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

٦ ـ الكـــدح

"الكدح" لفظ قرآنى. لم يُذكر إلا مرتين. الأولى اسم فاعل "كادح"، والثانية اسم فعل "كدح" فى نفس الآية، ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه**﴾ للتأكيد على أن الإنسان فى هذا العالم فاعل وعامل وكادح، وأن الفعل والعمل والكدح هو وضع الإنسان فى العالم. وهو ما يتفق مع كثير من الأمثال العامية على أن الحياة كفاح مثل "اعمل يا عبد وأنا أعينك". وهو ما أكده الشعراء أيضا من أن الحياة عقيدة وجهاد.

وهو ضد القيم الصوفية الموروثة، ما يُسمى بالمقامات والأحوال التى ذاعت فى الثقافة الشعبية خاصة فى المغرب العربى وفى مصر والسودان وفى البلاد الإسلامية والأفريقية والأسيوية فى الهند وأواسط آسيا، وفى إيران التاريخية قبل الثورة الإسلامية. وهى القيم التى تعتمد على الصبر والتوكل والتواكل والخوف والخشية والرضا والاستسلام والقدرية، وأولوية الجوع على الشبع، والعطش على الرى، والعرى على الكساء، والعراء على الإيواء، والفقر على الغنى. فلا يُعرف الله إلا ببطن جائع وبدن عار.

وهو ضد السلوك الشعبى الشائع عن المسلمين مثل الكسل وقلة العمل، والعجز وعدم أخذ زمام المبادرة، والتشاؤم من الحياة، وقلة الحيلة، وانسداد الطريق، وضيق الأفق، والاعتماد على السؤال ومد اليد، وانتظار الرزق من السماء أو من الإرث. فإذا ضاقت السبل فى الداخل فالهجرة إلى الخارج والمخاطرة بالحياة بالتسلل بالقوارب

فى هجرات غير شرعية قد تنجح وقد لا تنجح وتنتهى بالموت غرقا أو بالسجن والترحيل.

وهو ضد الأوضاع الحالية للمسلمين من جوع وعطش ونزوح الملايين وهلاكهم بالأمراض أو الفياضانات أو الزلازل وعدم قدرتهم على السيطرة على واقعهم، وانتظار المعونات الأجنبية لهم من الكنائس والمنظمات الدولية. أفواه جائعة، وأجساد هزيلة، وأرواح صاعدة إلى السماء بالمئات كل يوم بالحرب أو النزوح. وتصنف معظم الشعوب العربية والإسلامية بأنها ضمن الدول المتخلفة أو النامية تعيش على ما ينتجه غيرها، وتستورد أكثر مما تصدر. لا تستطيع سد حاجات البدن أولا قبل التعليم والثقافة فى عصر ينتشر فيه الإعلام، وتسيطر فيه الصورة.

والكدح يدوى وعقلى. الكدح اليدوى فى الإنتاج. فالأرض متسعة، والمياة وافرة فى السودان والعراق ومصر، والسواعد فى مصر والسودان والخبرات العربية فى كل مكان. والاستثمارات موجودة فى الخليج. فإمكانيات الإنتاج الزراعى متوافرة. ما ينقص هو الإرادة والإحساس بالوحدة والتضامن المشترك والاعتماد المتبادل وخطط ومشاريع قومية للتنمية دون الاعتماد على الاستيراد من الغير. والمعادن موجودة فى الصحراء، القاحلة فى ظاهرها، الغنية فى باطنها. فالتصنيع وارد بدلا من الاستيراد. والطاقة موجودة. فالصناعة بعد الزراعة نتيجتان طبيعيتان للكدح اليدوى.

والكدح العقلى متوافر فى العقول العربية والطيور المهاجرة التى تنمى البلاد المتقدمة. ما ينقص هو الثقة بالذات، وأخذ زمام المبادرة، والتحول من النقل إلى الإبداع، والتأسى بجهود السابقين حيث كانت الزراعة والرى فى الأندلس والعراق نموذجا لزراعة الأوروبيين وريهم. ما ينقص هو الخروج على عادة الاسترخاء والتبعية والاستسهال.

وإذا كان الفلاسفة قديما قد قسموا الإنسان إلى أنواع: الإنسان العاقل أو الحكيم homo sapiens الذى يقتصر دوره على التفكير والتنظير مثل فيلسوف اليونان، والإنسان المتكلم homo loquox الذى وظيفته الكلام والجدل والمناظرة مثل الفيلسوف اللاهوتى فى العصر الوسيط أو المتكلم الإسلامى الذى يثبت صحة العقائد، والإنسان الهوائى homo patheticus وهو الصوفى الذى توجهه الانفعالات والحدوس الوجدانية فإن الإنسان العامل homo faber هو النموذج الذى طالب به الإصلاحيون المحدثون طبقا للنموذج القرآنى، **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾، ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل﴾، ﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.**

وقد قضى الغرب عصوره الحديثة فى التحول من النظر إلى العمل. فالإرادة أوسع نطاقا من الذهن عند ديكارت. والعقل العملى هو القادر على التعامل مع بواطن الأمور وليس مع ظواهرها عند كانط. وفى البداية كان الفعل وليس الكلمة عند جوته. وليس المهم فهم العالم بل تغييره عند ماركس. والأنا تضع نفسها حين تقاوم عند فشته. والحقيقة عملية من صنع الإرادة عند برجسون.

والغريب أننا نعيب على الغير الذين يؤيدوننا باللسان دون الأفعال، وبالأقوال دون الأعمال مثل الغربيين والأمريكيين ونحن أولى بالنقد. فالأمة التى تقول أنها خير أمة أخرجت للناس محتلة، مجزئة، مقهورة، مغتربة، خاملة، راضية. شتان بين مثالها وواقعها. ليتها تتدبر معنى الكدح وتكون من الكادحين.

٧- القسط

ومن مفاهيم العدل وصوره مثل الميزان مفهوم "القسط". وقد ورد فى القرآن سبعا وعشرين مرة فى صيغ متعددة، فعلية واسمية. أكبرها "القسط" اسم فعل ثم "المقسطين" اسم مفعول جمع، ثم "القاسطون" اسم فاعل، ثم فعل الأمر "أقسطوا" أو المضارع "تقسطوا"، ثم أفعل التفضيل "أقسط".

ومن حيث المعنى أكثر الاستعمالات هو القسط مع اليتامى، والزواج منهن أفضل من استغلال ثرواتهن من الوصى عليهن، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾. فاليتامى مثل المستضعفين من الولدان، ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾. والقسط أيضا بين الأزواج، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. والقسط فى الحرب والسلم. فالقسط مع المسالمين الذين لم يحاربوا المسلمين، ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾. فإن عاد المقاتلون إلى الحق فالبر والقسط معهم، ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾. والقسط أيضا يكون فى الكيل والميزان، مع الأشياء وليس فقط مع الأفراد، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، الكيل والميزان بالقسط، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾. وهى عادة عربية حتى الآن وكتابة العقود والديون والآجال أقسط عند الله، ومنعا للريبة والغش، ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلا تَرْتَابُوا﴾. ودعوة الأبناء الى الآباء أقسط عند الله. فالنسب للأب، ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

والقسط من أفعال الله لأن الله لا يظلم أحداً، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾. والله أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط فيما بينهم، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. والحكم بين الناس بالقسط أمر إلهى، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. القسط أمر إلهى شهادة لله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، والشهادة لله شهادة بالقسط، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾. والقسط حكم بشرى بناء على أمر إلهى، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. القسط أمر إلهى وليس فقط مصلحة بشرية عامة، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾. فقد قضى الرسول بين الناس بالقسط ولا يظلم الناس أحداً، ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

والأمر بالقسط جزء من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والشهادة فى سبيله، ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فالسلطان يريد أن يحكم بمفرده دون مراجعة أو تصحيح. يفعل الناس ما يأمرهم به ويطيعونه دون مراجعة. وجزاء الشهداء الجنة، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾. والقاسط غير المقسط. القاسط نقيض المقسط. القاسط هو الذى يتجاوز القسط. وهو نقيض المسلم، ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾، ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

ومن "القسط" اشتق "القسطاس" وهو الميزان والمقياس العدل الذى يوزن به ويقاس، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. ومن لا يزن بالقسطاس فإنه يُخسر من الأشياء أو ينقص منها، ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ

الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. لذلك سمى الغزالى أحد كتبه المنطقية فى القياس "القسطاس المستقيم" الذى توزن به الأشياء بالعدل والقسطاس.

ومن الشائع أن التاجر العربى يخسر فى الميزان إذا باع ويستوفى إذا اشترى، ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾. والصانع يغش فى صناعته. وكل صاحب عمل يزور فى عمله حتى عم الفساد وغاب القانون، القانون التجارى، والقانون الأخلاقى، قانون الضمير. وعم الظلم حياة المسلمين مع أن السموات والأرض قامتا على الميزان والقسط، والحياة تأسست على العدل. وربط المعتزلة بين التوحيد والعدل. التوحيد بلا عدل فارغ بلا مضمون. والعدل بلا توحيد قد يقع فى الهوى والنسبية والمصالح الشخصية. كما قامت عديد من الأحزاب الإسلامية المعاصرة فى المغرب وتركيا والسودان باسم "العدل والمساواة" تأكيدا على المضمون الاجتماعى للتوحيد. ومازالت شخصيات مفتاحها العدل محط احترام وتبجيل فى تاريخنا القديم مثل عمر بن الخطاب. وفى أمثلتنا الشعبية الموروثة "العدل أساس الملك". وأعظم لقب للسلطان هو "السلطان العادل".

٨ـ الميـــزان

وإذا كـان القسط من مفاهيم العدل فإن الميزان من صوره. وقد ورد لفظ "الميزان" ومشتقاته فى القرآن الكريم ثلاثا وعشرين مرة اسما أكثر منه فعلا للدلالة على حقيقة الميزان والموازين. والفعل فى صيغة الأمر للدلالة على أن العدل أمر إلهى وحقيقة موضوعية. وهى موازين موضوعية "الميزان" و"الموازين"، وموازين ذاتية لقياس أعمال الإنسان "موازينه". وهما الصيغتان الاسميتان الأكثر شيوعا.

وقد ورد اللفظ بخمسة معان. الأول وهو الأكثر شيوعا هو العدل فى الدنيا والأمانة فى التجارة، واستيفاء الكيل والوزن بالعدل والقسطاس، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. وهو المعنى الحسى فى البيع والشراء، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾. وهو أمر مباشر للناس، ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾. وعادة ما يريد البائع إعطاء الشارى أقل من حقه فيخسر فى الميزان ويغش فيه بالنقص، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾. فالدفاع عن حق المستهلك ضد جشع البائع، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾. فالنقص من الوزن يبخس حق الناس، ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾. واستيفاء الكيل وعدم النقص فيه علامة على الخير وحسن السلوك والفضيلة، ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾. وقد يكون المعنى مجازيا، ليس فقط الأمانة فى السوق بل أيضا فى الحياة العامة. الميزان فى كل شىء، والقسطاس المستقيم فى كل سلوك، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. فالغش فى الميزان علامة على الطغيان

وعدم احترام حقوق الآخرين، ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾. فالطغيان ليس فقط فى السياسة بل أيضا فى الاقتصاد. ومن يتحكم فى الرأى يتحكم أيضا فى السوق.

والمعنى الثانى أن الكتاب نزل بالحق والميزان. فالوحى ميزان للحقيقة وعدالة فى الرؤية، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾. الوحى إقرار للعدل فى الدنيا ومنع للطغيان وليذكر الناس بالقسط، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. الوحى والعدل صنوان. لذلك جعل المعتزلة من أصولهم التوحيد والعدل. وجعلوا العدل أساس التوحيد وليس القهر والقمع والظلم.

والمعنى الثالث أن الميزان أساس الكون أيضا، وأن الكون يقوم على ميزان دقيق، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾. فالعدل ليس فقط فى السلوك البشرى ولكن أيضا فى الكون، ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. حركة الكون منتظمة، دوران الأرض، وتعاقب الليل والنهار، وشروق الشمس وغروبها. وكل شىء فى الكون له وظيفته فى الاتزان. الجبال رواسى شامخات لاستقرار الأرض، والبحار ممتدة ليصعد منها البخار فتتراكم السحب فينزل المطر، وتخضر الأرض، ويأكل الحيوان والإنسان منها، ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾.

والمعنى الرابع هو الوزن الحق يوم القيامة، كل حسب عمله طبقا لقانون الاستحقاق، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾. وهو الميزان الشامل لسلوك الإنسان فى الدنيا وتقييم أعماله طبقا لقانون العدل. فالحياة اختبار والبعث نتيجة لهذا الاختبار.

والمعنى الخامس هو قانون العدل أو الاستحقاق. وهو الميزان القسط يوم القيامة، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. فالموازين الثقيلة بالأعمال الصالحة نجاة. والموازين الخفيفة بالأعمال الصالحة هلاك، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. ومن خفت موازينه يخسرون أنفسهم، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾. من ثقلت موازينه يكون من الفالحين، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ومن خفت موازينه يكون من الخاسرين. من ثقلت موازينه يكون فى عيشة راضية، ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. وأما من خفت موازينه فهو من الهاوين. وتكون المسئولية على أمه التى لم تقم بتربيته التربية الصحيحة، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾. ومن حبطت أعماله ليس له وزن يوم القيامة أى ليست له قيمة، ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

فالميزان صورة العدل كما هو موضوع ومحفور على أبواب المحاكم. وهو أيضا صورة العدل فى الآخرة منذ قدماء المصريين ووزن أعمال الميت، أعمال الروح. فالميزان فى حياة الإنسان، فى الدنيا والآخرة، وفى الطبيعة والكون. لا فرق بين الذات والموضوع، بين الدنيا والآخرة. فالميزان واحد وعام وشائع مهما اختلف الزمان والموضوع.